المحاضرة الحادية عشرة: الثغري، التلالسي التلمساني.

1/ مولده ونشأته:

محمد بن يوسف القيسي التلمساني المعروف بالثغري، أبو عبد الله، أديب وكاتب من أهل تلمسان، ومن أشهر شعرائها وبلغائها المقدمين لدى سلاطينها في المائة الثامنة لعهد أبي حمو موسى الثاني، وصفه المازوني بالإمام العلامة الأديب الأريب الكاتب، ووصفه المقري: "بالعلامة الناظم الناثر"، له قصائد كثيرة نقل بعضها يحي بن خلدون في "بغية الرواد، " والمقري في "أزهار الرياض "، وابن عمار في رحلته "نحلة الحبيب".

2_ شعره، الأغراض والخصائص:

عاصر الثغري كوكبة من الشعراء المبدعين أمثال ابن أبي جمعة التلالسي، وعبد المؤمن بن يوسف المديوني، ومحمد بن صالح الشقروي، وابن ميمون السنوسي، ومحمد بن علي العصامي، ويحي بن خلدون وغيرهم كثير. اختير الثغري وأصبح كاتب الإنشاء لأبي حمو الثاني، كما أصبح شاعره الفذ الأول، وكان أبو حمو الثاني (760 – 791 هـ) يرعى الأدباء ويجزل لهم العطاء، وكان أديبا كما كان شاعرا كبيرا فطبيعي أن يعنى بالأدباء والشعراء لعهده وأن يكون لشاعره محمد بن يوسف الثغرى حظ كبير من هذه العناية. وكان قد استنّ الاحتفال بالمولد النبوي منذ استولى على صولجان الحكم فكان ينظم فيه مدحة مولدية، وكذلك شعراؤه وفي مقدمتهم الثغري، وكانوا يستطردون فيها من مديح الرسول صلّى الله عليه وسلم إلى مديحه .

يقول الثغري مادحا أبا حمو:

يا إمام الهدى وشمس المعالى*** وغمام النّدى وبدر النّوادي

لك بين الملوك سرّ خفيّ *** ليس معناه للعقول ببادي

وكأنّ البلاد كفّك مهما ***كان فيها من ينتمى لعناد

لم تزل دائما تحنّ إليكم ***كحنين السّقيم للعوّاد

قد أطاعتكم البلاد جميعا ***طاعة أرغمت أنوف الأعادي

فأريحوا الجياد أتعبتموها *** وأقرّوا السّيوف في الأغماد

يشيد الثغري بأبي حمو، فيجعله إمام الهدى وشمس المعالي وسحاب الكرم والبدر المضيء الهادي، ويقول إن له سرا خفيا بين الملوك جعله محبوبا من شعبه، وكأنما يقبض على البلاد بكفه؛ بل هي كفه، حتى لو كان فيها خارج عليكم، وإنها لا تزال تحن إليكم حنين السقيم للعواد، فأنت بلسمها المداوي الشافي. ويقول إن البلاد جميعا تطيعك فأرح الجياد التي طالما أتعبتها وأقرّ السيوف في أغمادها وعش قرير العين مطمئن البال. وله فيه من أخرى أشاد فيها بتلمسان ومشاهدها إشادة بديعة، وفيه وفى قبيلته بنى عبد الواد يقول:

فرسان عبد الواد آساد الوغى *** حاموا الذّمار أولو الفخار الأطول

وإذا أمير المؤمنين رأيته *** فالثم ثرى ذاك البساط وقبّل

بشرى لعبد الواد بالملك الذي *** خلصوا به من كل خطب معضل
وكفاهم سعدا أبو حمّو الذي *** يحمى حماهم بالحسام الفيصل
وبحسن نيّته لهم وبجدّه *** وبسعده وبسعيه المتقبّل
ذو الهمّة العليا التي آثارها *** حلّت به فوق السّماك الأعزل

يشيد بفرسان قبيلة عبد الواد أسد الحروب أصحاب الفخار العظيم الذين يحمون الحمى، وإذا رأيت أمير المؤمنين فقدم له كل ما يمكن من تجلة، وبشرى لعبد الواد ملكهم الذي خلصهم من كل ما ألم بهم من خطوب خطيرة، ويكفيهم سعدا أنه أبو حمو حامى حماهم بشجاعته الباسلة وهمته القعساء التي حلّت به فوق نجم السماك المصعد في السماء. وكان ما يزال ينظم مولديات في احتفال أبى حمو بليلة المولد النبوي وكان يستطرد فيها إلى مديحه دائما بمثل قوله في إحداها:

ظفر التّقى والعدل من موسى الرّضا*** بالجوهر الفرد الذي لا يتأم
يا أيها الملك التقيّ ومن له *** شرف على سمك السّماك مخيّم
أعطيت بالعدل الخلافة حقّها *** فملوكها في حقها لك سلّموا
جود وإحسان وقصد في الهدى *** حسن وعقد في التقى مستحكم
وتواضع يعلى وقدر يعتلي *** وندى يد تهمى وبشر يبسم
والحلم أوسع والجناب مؤمّل *** والعزّ أمنع والسجيّة أكرم

يقول إن التقى والعدل جميعا ظفرا من أبى حمو بالجوهر الفرد الذي لا نظير له، وإن تقاه ليخلع عليه شرفا يسمو به فوق نجم السماك الأعلى، وبالمثل عدله الذي يسبغ على الخلافة جميع حقوقها مما جعل ملوكها يسلّمون لك عن يد، وهذا أنت جود وإحسان وهدى وتقى وتواضع ومكانة كبيرة وكرم يهمى ويهطل وبشر يبسم وحلم أوسع وكنف مؤمّل وعز منيع وسجايا كريمة. ويظل يرصف له فضائل كريمة كثيرة. ويتحول الثغري بعد أبى حمو الثاني شاعرا لابنه أبى تاشفين (791 – 795 هـ)، وينشده مولديات يستطرد فيها إلى مديحه من مثل قوله في الاحتفال بليلة سابقة لليلة المولد الشريف:

إمام تولّى الله تشييد فخره *** فما شئت من مجد ومن كرم عدّ
يعدّ إلى الأعداء كلّ كتيبة *** بها الجرد تردى والقوارس كالأسد
يهاب ويرجى في جلال جماله *** كليث وغيث في وعيد وفى وعد
فيا مالكا يحمى الرعيّة رعيه *** ويحييهم بالبذل والعيشة الرّغد
ويكفلهم بالعدل والفضل والنّدى *** ويشملهم بالجود والرفق والرّفد

يمدح الثغري أبا تاشفين بما أسبغ الله عليه من مجد ومن كرم فياض، ويقول إنه يعد إلى الأعداء كتائب تضرب خيلها الأرض بحوافرها الصلبة ويضرب فرسانها الأعداء ضربات مصمية، وإنه ليهاب كليث في وعيده

ويرجى كغيث في وعده، ودائما يحمى الرعية برعايته ويحييهم بما يسبغ عليهم من عطاء ورخاء مع ما يكلفهم به من العدل والفضل ويشملهم به من الرفق والجود والكرم المدرار.

ويلحق الشاعر عصر أبي زيان (796 - 801هـ) وفيه يقول من ميلادية طويلة:

لئن كان بحرا في العلوم فإن في *** بنان يديه للنّدى أبحرا عشرا

وما همّه إلا كتاب وسنّة *** بنسخهما قد أحرز الفخر والأجرا

فنسخ كتاب الله جلّ جلاله *** ونسخ البخاري ضامنان له النّصرا

ومن كان يعتدّ الشفاء شفاءه *** فمن علل الأوزار في نسخه يبرا

ولم أدر والأوراق راقت بخطّه *** أمسكا على الكافور ينثر أم حبرا

ألا هكذا فليسم للمجد من سما *** ويجرى لآماد الفضائل من أجرى

وكان أبو زيان كلفا بالعلم كما وصفه التنسي ولم يخل مجلسا له من مناظرة أو مذاكرة ومحاضرة، وكان غيثا مدرارا في الجود والكرم، وجعل همه-كما يقول الثغري والتنسي- كتابة نسخ من المصحف الشريف، وتحتفظ الخزانة العامة للرباط بإحدى هذه النسخ النفيسة، وهي على رق غزال ومحلاة بالذهب وجميع ما فيها من أسماء الله الحسنى مكتوب بالذهب، وكتب نسخة من صحيح البخاري ونسخا من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلّى الله عليه وسلم للقاضي عياض. وبحق ما يقوله الثغري من أن من يعتد شفاء القاضي عياض شفاء له يبرأ به من جميع الأوزار فما بالك بمن يعتد بالبخاري وأهم من ذلك وأعظم بالقرآن الكريم. ويقول الثغري: إن من يرى المداد على تلك الأوراق إنما يرى مسكا منثورا على الكافور، وما أعظمه من مجد حققه لنفسه أبو زيان، وهو مجد خليق بأن يتسابق إليه المتسابقون ويتنافس فيه المتنافسون.

لم تذكر المراجع متى توفي الثغري، وأكبر الظن أنه توفي في آخر القرن الثامن أو في أوائل التاسع الهجري.

المحاضرة الثانية عشرة: عفيف الدين التلمساني، الشاب الظريف:

1_ مولده ونشأته:

محمد بن سليمان (عفيف الدين) (**661 – 688هـ / 1263 – 1289م**) بن علي بن عبد الله بن علي بن يس العابدي التلمساني، شمس الدين، الشهير بالشاب الظريف :شاعر مجيد ابن شاعر مجيد. أصل عائلته من بليدة "الكومة" وهي قبيلة صغيرة كانت منازلها بساحل البحر من تلمسان. هاجر أبوه الى المشرق وأقام بالقاهرة، فولد صاحب الترجمة بها، ثم انتقل مع أبيه الى دمشق، فنشأ بها على أدب أبيه. ثم ولي بها عمالة الخزانة، الى ان مات، ودفن في مقابر الصوفيين. قال الصفدي: " شاعر مجيد ابن شاعر مجيد، كان فيه لعب وعشرة وانخلاع ومجون " وقال ابن تغري بردي: "كان شابا فاضلا ظريفا، وشعره في غاية الحسن والجودة" وذكره أحمد أمين فقال: "شاعر غزل، خفيف الروح أودع بالبديع كأهل زمانه، ولكنه استعمله في رقة وعذوبة".

تلمذ الفتى على والده ابتداء وعلى طائفة من العلماء منهم ابن الأثير الحلبي. ويدل ما في شعره من مصطلحات الفقهاء وأصحاب الأصول وأهل المنطق على طبيعة ثقافته ومعارفه العامة. كان ذا خط جميل كتب به ديوانه.

توفي شابا في ريعان شبابه في دمشق عام 688هـ عن عمر يناهز الـ 27 ربيعا.

2_ الأغراض الشعرية:

الشاب الظريف شاعر رقيق وصفه الصفدي بقوله: (شاعر مجيد ابن شاعر مجيد، وكان فيه لعب وعشرة وانخلاع)، وذلك لما ورد في ديوانه من مقطعات صغيرة تجاوز فيها الحد الذي يقف عنده كل تقي ورع ولكننا مع ذلك نجد له بعض الأبيات في مديح النبي تؤكد حبه للنبي وصحة اتباعه لتعالميه، قال الشاب الظريف:

أجل داع مطاع طاهر الحسب ***يا خير ساع بباع لا يرد ويا معتمدا

فكان لي ناظر من ناظر النوب ***جعلت حبك لي ذخرا ومعتمدا

1_المدح والفخر: مدح النبي المصطفى:

قالوا غدا نأتي ديار محمد *** فقلت لهم هذا الذي عنه أفحص

أنيخوا فما بال الركوب وإنها ***على الرأس تمشي أو على العين تشخص

نبي له آيات صدق تبينت ***فكل حسود عندها يتنغص

نبي بأملاك السماء مؤيد*** وبالمعجزات البينات مخصص

ومالي من وجه ولا من وسيلة ***سوى أن قلبي في المحبة مخلص

إذا صح منك القرب يا خير مرسل ***عن أي شيء بعد ذلك أحرص

وقال أيضا:

ومعشر لم تزل في الحرب بيضهم*** حمر الخدود وما من شانها الخجل

إذا انتضوها بروقا ردها سحبا ***بها دم سال منها عارض هطل

توحي إلى كل قرطاس بلاغته ***سحر البيان ومن أقلامه الرسل

سمر تروقك رأي العين عارية ***ومن البديع معانيه لها حلل

زالوا فأودع في الأسماع ذكرهم ***محاسنا أودعتها قبلها المقل

امدح فقل في معانيه فقد كرمت ***لا يحسن القول حتى يحسن العمل

قال ابن فضل الله العمري عن شعر الثغري: " نسيم سرى، ونعيم جرى، وطيف لا بل أخف موقعا منه في الكرى، لم يأت إلا بما خف على القلوب، وبريء من العيوب، رق شعره فكاد يشرب، ودق فلا غرو للقضب ان ترقص والحمام أن يطرب .. .".

2_الغزل:

ما بت من خوف الهوى أتألم ***لو أن قلبك لي يرق ويرحم

داريت أهلك في هواك وهم عدى ***ولأجل عينك ألف عين تكرم

يا جامع الضدين في وجناته*** ماء يشف عليه نار تضرم

عجبي لطرفك وهو ماض لم يزل*** فعلام يكسر عندما تتكلم

وقال أيضا:

لا تخف ما صنعت بك الأشواق ***وشرح هواك فكلنا عشاق

قد كان يخفي الحب لولا دمعك الـ*** جاري ولولا قلبك الخفاق

فعسى يعينك من شكوت له الهوى ***في حمله فالعاشقون رفاق

3_ الوصف: قال الثغري:

وكأن سوسنها سبائك فضة***كأن نرجسها عيون تنظر

حملت سقوط الطل منه عيونه*** فكأنها عن جوهر تستعبر

4_ له في المرقص (شعر المرقص ما كان مخترعاً أو مولداً) قوله:

سار وافياً وحشة الوادي لبعدهم *** عنه ولا سيما القضبان والكثب

وقوله:

وأعدلي حديثه فلسمعي *** فرط وجد بالؤلؤ المنثور

ثم صف لي ذابة منه طالت *** ودجت فهي ليلة المهجور

لقد أثنى على الثغري صاحب المفصل في الأدب العربي وقال: "هو طرفة هذا العصر. وشعره يدل على نبوغ موروث، فقد كان أبوه شاعرا محسنا. والشاب الظريف شاعر مجيد، رقيق خفيف الروح، ناصع الديباجة، في شعره نفحات من العبقرية المصرية، وكان مولعا بالبديع كبقية شعراء عصره، ولكن البديع لم يفسد عليه شعره، وأكثر شعره في الغزل شأن أكثر شعراء هذا العصر". له " ديوان شعر " طبع مرات، أكملها واتقنها الطبعة التي حققها شاكر هادي شكر سنة 1387 هـ (1967 م). و "مقامات العشاق" قال صاحب "عصور سلاطين الملوك " إنها طبعت أكثر من مرة.